

## امراة اسمها هدية

بقلم مها محمد

Omlayth2000@yahoo.com

قالت إحدى النساء المتجمعات حولها:  
- إنها مينة.. انظرن إلى اصفرار وجهها واسترخاء أطرافها...  
- بل هي حية، تتنفس.. إنها ترمش..  
صاحت ثالثة  
- ماء.. قليلا من الماء.. ابتعدن عنها لتتنفس..  
أذعنت النسوة للطلب، إلا أنا، فلقد تسمرت في مكاني، وتملكتني الدهشة، مثلما اعتراني الخوف والشك!  
قد تكون هي.. أو ربما امرأة تشبهها..  
كلا، فلا يمكن أن يمضي الزمن هكذا، وينهش بأنيابه اللثيمة على هذا النحو.  
أمعقول ذلك؟!  
مستحيل.....!

جاءت إحداهن بالماء وسكبته فوق وجهها، وتقدمت أخرى لتمسح جبينها وترفعها عن الأرض قليلا...  
أهكذا تكون نهايتها؟ معقول؟! عجوز محطمة، وتتشح السواد، ملقاة على قارعة الطريق مثل أي كائن  
منبوذ؟!  
سألت: ماذا جرى لها، ومن هي؟!  
- المسكينة هدية.. أم يوسف، لم يتبق أحد عندها بعد أن طردها أولادها الثلاثة، فأواها أحد فاعلي  
الخير هنا، في هذا الزقاق وفي تلك الحجرة المظلمة.  
- وكيف تعيش؟  
- إننا لا ننساها، نحن الحيران!

عدت إلى الورااء.. إلى طفولتي التي ازدهمت بذكريات عن أم يوسف وأبنائها المدللين، وعلاقتها الوطيدة  
بأمي...  
كانت تتردد على دارنا يوميا، وتحكي لنا حكايا عن سفراتها إلى بيروت والحجاز، مع قصص عن النساء  
هناك... كنت أميزها من بين الأخريات لأنها كانت أجملهن، وأكثرهن عطاءً وحنانا...  
وكانت هي الأخرى، تكن لي حبا يختلف عن أخواتي الأخريات.  
صاحت إحدى النساء:

- من ألقاها هنا؟ لقد زرتها في المستشفى أمس الأول!

- سألتها:

- ما خطبها؟

- كانت تعاني من مغص كلوي مستمر، وقد خضعت لجراحة إزالة الحصى في المستشفى.

- ومن ألقاها هنا؟

- سيارة الإسعاف، بعد أن تعرضت المستشفى للقصف، ومات من مات فيها من المرضى، وبقيت هي  
عاجزة عن الحركة، فتم إيصالها إلى هنا، حيث تقيم قريبا.

دنوت من أم يوسف... وأخذتها بين ذراعي، فأحسست بدفء يسري في عروقها، ونبضات تتسارع في  
صدرها..

صحت:

- هيا، عاونوني.. ضعوها في سيارتي على المقعد الخلفي...

ورحت أجوب طرقات وأحياء وأزقة كنت أقود فيها سيارتي بمهل.. وأفكر بمصير سيدة أفنت حياتها في  
تربية أبنائها، وكابدت المحن لتؤمن لهم مستقبلا كريما وشهادات جامعية مرموقة...

ولكن، إلى أين أمضي بها، إلى أي مكان؟! لم أكن أدري.. وكل ما كنت أدركه إنني أحمل معي صديقة عزيزة على نفسي، وعلى أمي رحمها الله، وأجوب بها الشوارع ريثما أهتدي إلى حل يناسبنا، نحن الاثنين.

سأمضي بها إلى جاري صالح.. فهو صيدلاني، ورجل تقي وورع.. وأستشيرته، علّه يعينني في محنتي هذه...

ولكن، لم لا أمضي بها إلى منزلي؟ تذكرت زوجي وأولادي، ونظام بيتي الذي يسير على وفق نسق هادئ منذ سنين طوال.. كيف سيتقبل زوجي فكرة أن أووي في بيتي سيدة لا يعرف عنها شيئاً؟ كيف سيوافقني على تصرفي هذا؟ لا أظن أنني سأفلح في إقناعه. ثم أنني أحتفظ بصورة مشرقة عنها، ولا أود أن أشوهها أمام نفسي، ولا أمام الآخرين أيضاً؟

تلاطمت الأفكار في رأسي، وازدحم ذهني بذكريات طفولية كانت مثار حزن لي تارة، وفرح تارة أخرى....

انتبهت إلى الضوء الأحمر الذي يشير إلى قرب نفاذ الوقود في السيارة... ووقفت لدقائق وابتعت لترات تكفيني لمسيرة ساعة على الأقل...

سأمضي بها إلى صالح.. أجل هو من سيرشدني. فمعارفه كثيرون، وذكأؤه أكثر.. ولا بد أن يقودني إلى الحل الصواب.

ورحت أقود السيارة بسرعة جنونية وكنت أسمع خلال ذلك أهات هدية.. فطاب قلبي لذلك... إذا، ستحيا، وسيكتب لها الشفاء.. وسأكون أول من تراه، وأول من تمسح على رأسها.. والله لن أبخل عليها بشيء.. سأخصص لها راتباً، وأنقلها إلى حجرة أكبر، حيث الشمس والهواء والماء البارد... سأعودها بين الحين والآخر، وأطلب من أبنائها أن يعودوا إلى رشدهم.. ولكن، لن أدوس على كبريائها.. سأبقيا شامخة، أبيّة، مثلما كانت من قبل.

وصلت بيت صالح.. وضغطت على جرس الباب.

وعندما رأى صالح السيدة في المقعد الخلفي أدرك معاناتي. لم يقل شيئاً.

حملها إلى غرفته بعناية.. وهرع ليحلب لها حقنة.. وقاس الضغط. وطمأنني بأنها حية، وستكون على ما يرام...

بعد حين فتحت أم يوسف عينيها. كانت حرارتها ملتهبة، وفمها متيبس. أخذتها بين ذراعي، ووضعته في فمها قطرات من الماء...

ابتسمت لي بامتنان، وأظن إنها تذكرتني، وضغطت على يدي بمهل.. ثم اختلجت.. وشحب لون قدميها، ثم ساقها. حدقت في نقطة ما في السقف.. وقد تيبست تماماً.. ماتت!